٢٥ ـ مستقبل التوازن الإستراتيجى بين إسرائيل والعرب(*)

د. محمد قدرى سعيد(**)

مقدمة

كلمة إستراتيجى هنا كلمة واسعة تشمل توازنًا بشريًا واقتصاديًا وعسكريًا . . لكنى سأركز على الجانب العسكرى .

الجوانب البشرية والاقتصادية لا أتصور أنها فى صالح إسرائيل ، وخاصة فيما يتصل بالتوازن البشرى .

أما بالنسبة للجانب العسكرى فسوف أبدأ أولاً بعدد من الملاحظات السريعة :

ـ الملاحظة الأولى

إن إسرائيل ما زالت فى الفكر العسكرى العربى تصنف عدوًا ، وبالرغم من مرور فترة كبيرة من اتفاقيات السلام التى تمت معها ما زالت إسرائيل حتى فى الوعى الداخلى للعسكريين العرب هى التحدى ، وهى العدو بشكل أو بآخر ، وربما فى بعض الأحيان لا يقال ذلك بهذا الوضوح ، لكن التسليح والتعليم والتدريب العسكرى فى شكله العام يضع إسرائيل فى هذا التصنيف .

ـ الملاحظة الثانية

إن التاريخ العسكرى بيننا وبين إسرائيل لم يكن نصرًا لهذا الطرف أو ذاك ؛ ذلك أن

(*) نص مفرَّغ .

(**) نائب مدير مركز الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية .

إسرائيل انتصرت علينا فى عدد من الحروب، ونحن أيضًا انتصرنا عليها فى عدد من المواجهات المعروفة.

وأنا أتحدث عن مستوى المواجهة ككل، وعن التفاصيل الداخلية؛ لأن هناك أعمالاً تمت بعد هزيمة ١٩٦٧ بشهور قليلة، وكانت أشياء تتم لأول مرة، منها مثلاً إغراق المدمرة إيلات؛ فهذه من العمليات التى دخلت التاريخ العسكرى.. هناك إضافات كثيرة على المستوى الفكرى والتطبيقى فى الناحية العسكرية على الجانب العربى، ومنها عملية تحرير جنوب لبنان.. إذن ليست هناك عقدة متأصلة فى عملية المواجهة مع إسرائيل بحيث يمكن القول إنها تهزمنا على طول الخط أسوأ من أن نهزمها أيضًا على طول الخط.

ـ الملاحظة الثالثة

قد أشار إليها أستاذنا السيد ياسين؛ وهى أنه قد حدث تغيير فى طبيعة المواجهة العسكرية مع إسرائيل، فلسنوات طويلة كانت المواجهة تحدث على مستوى الدول، لكن قريبًا حدثت مواجهات عسكرية بين إسرائيل وكيانات عسكرية لا تنتمى لدولة بعينها، وبالتالى إسرائيل من فترة بدأت فى رصد هذا الكيانات، وبالتأكيد إسرائيل فى مصر مثلاً بدأت ترصد وتنظر إلى جماعة الإخوان المسلمين وتدرس فكرهم فى عملية المواجهة؛ حيث إنهم ديموقراطيًا فى وقت ما ربما يصلون إلى الحكم، وبالتالى فإن فكرهم واقترابهم من الناحية العسكرية فى المواجهة مع إسرائيل سوف يكون مختلفًا عن الوضع الحالى. بعد هذه النقاط التمهيدية سوف أتحدث عن مستقبل التوازن.

أولاً: التوازن العددى

لم يكن على المستوى العددى ما بين إسرائيل والدول العربية ـ وأيضًا بين إسرائيل ومصر بالتحديد ـ غلبة لإسرائيل عدديًا فى العناصر العسكرية فى المواجهة؛ بمعنى أن عدد الجنود والطائرات والدبابات والسفن على مستوى مصر وإسرائيل كانت فى صالح مصر.

وأنا أتحدث عن البحث الذى عادة ما يصمم فى صورة جدول ويذكر فيه عدد المدافع وعدد السفن، فهو سيكون فى صالح مصر، وبالتالى إذا أضفنا الدول العربية أيضًا إلى هذا الجدول سيكون فى صالح العرب، لكن طبعًا سنأتى الآن إلى عوامل أخرى فى قياس التوازن.. فالعدد ليس كافيًا للقياس، وهناك بعض العوامل التى سأتحدث عنها تغير هذا التوازن فى بعض الأحوال.

ثانيًا: الإضافة بعد حرب أكتوبر

بعد حرب أكتوبر على مستوى مصر ـ وعلى مستوى أكثر العالم العربى ـ لم تعد الإضافة للعامل العسكرى والقوة العسكرية تتم بنفس المعدل الذى كان موجودًا فى عام ١٩٧٣ وما قبلها وما بعدها . . وإذا رأينا عدد الدبابات أو السفن أو الأسلحة التى تضاف مثلاً إلى الجيش المصرى سنويًا سنجد أنها أقل كثيرًا من الفترة التى كانت عليها فى عام ١٩٧٣ ، لكن لو نظرنا إلى الإضافة العسكرية لإسرائيل نجدها أكثر لأن إسرائيل لا تقيس قوتها على مستوى مصر أو العالم العربى فقط ؛ بل على مستوى أكبر بإدخال إيران وربما باكستان فى المعادلة ، فإن استشعارها التهديد أعلى من استشعارنا نحن بالتهديد ، وبالتالى فإن معدلات البناء العسكرى لإسرائيل من حيث الكمية والجودة والنوع والعدد أكبر من الجانب المصرى والعربى .

ثالثًا: القدرة على التطوير الذاتى

لا شك أن هناك فرقًا ربما فى المعدات والتدريب والجودة فى الفكر ؛ لأن الجانب الإسرائيلى متعرض كما ذكرت لتحدٍّ دائم .

وهناك جانب هام فى التوازن الإستراتيجى بين إسرائيل والعرب ، ومستقبل هذا التوازن أيضًا ؛ وهو أن إسرائيل تمتلك مؤسسة عسكرية صناعية وتكنولوجية كبيرة جدًا ؛ بحيث إنها من الممكن أن تضيف كثيرًا إلى نوعية السلاح الموجود ؛ علاقة إسرائيل بالولايات المتحدة الأمريكية ، وبالتالى نوعية السلاح الذى تمتلكه ، أضف إلى ذلك نوعية السلاح الذى يمتلكه العرب من ناحية التجهيز والنوع ، ومن ناحية القدرة على تطويره ذاتيًا داخل الدولة وداخل المؤسسة العسكرية ليتناغم معها ، وأنا أعتقد أن ذلك جزء مهم جدًا فى عملية تطوير الأداء العسكرى ، والقدرة على تقبل النقد والتحليل وفهمه . . المحيطات الأخرى تحظى بهذا المدد لكن بالنسبة للعالم العربى من الصعب جدًا فى أى دولة أن يخرج العنوان الرئيس فى أى جريدة مثلاً ويقول إن العسكريين كانوا مخطئين .

رابعًا: التعليم

التعليم العسكرى هو جزء مهم جدًا لأنه يشمل بناء الفرد العسكرى ابتداءً من العقيدة ،

حتى التدريب المباشر، ولا شك أنه حدث تطوير فى مصر نتيجة العلاقة مع الغرب، وإرسال ضباط وجنود إلى الخارج للتدريب، لكن أعتقد أن المؤسسات الداخلية نالها بعض التطوير، لكن ليس بالقدر الكافى المتوقع، وهذا الموضوع نقطة مهمة جدًا فى تطوير الفكر العسكرى الداخلى، وربما أن سببه أيضًا محدودية النقد وحرية النقاش.

خامسًا: التكنولوجيا والبحوث

لا شك أن هناك فى مصر بحوثًا عسكرية على مستوى العقيدة العسكرية وعلى مستوى تطوير السلاح، ومصر تعتبر تقريبًا أكبر دولة فى العالم العربى تقوم بذلك؛ لأنها تمتلك مؤسسة صناعية، وأيضًا قادرة على إنتاج نوعيات كثيرة من الأسلحة، وأيضًا تطوير أسلحتها، وإضافة إمكانيات كبيرة لها، وقد دخلت بالفعل مجالات إستراتيجية مثل مجال الصواريخ وبناء المدافع، وإنتاج أو تجميع الدبابات.

فى مصر هناك صناعة عسكرية قوية، لكن لا شك أنه فى مجال التطوير التكنولوجى والبحثى من الناحية العسكرية ـ مقارنة بين مصر والعرب فى كفة، وإسرائيل فى كفة أخرى ـ نجد أن الميزان فى صالح إسرائيل.

سادسًا: الثورة فى الشئون العسكرية

من حوالى خمس عشرة سنة أو عشرين سنة منذ حرب الخليج؛ حدث استغلال كبير جدًا للثورة فى نظم المعلومات، وتم إدخالها أيضًا فى نظم الأسلحة، وأيضًا فى عملية إدارة الحرب، وسأعطى الآن مثالاً بسيطًا بالنسبة لإسرائيل عن قدرتها على معرفة المعلومة ورد فعلها بالسلاح؛ فالقوات الإسرائيلية كانت إذا رصدت فدائيًا فى غزة تحتاج إلى فترة زمنية لاتخاذ أى إجراء عسكرى ضده.. هذه الفترة تم تقليلها إلى دقائق معدودة، ومن الناحية التطبيقية هذه عملية معقدة جدًا أن تنتقل المعلومة ثم تحلل ثم تتحدد طبيعة الرد ويتم تجهيز الرد ثم عمل الرد نفسه؛ وهو ما يستلزم تدريبًا وتطويرًا فى المنظومة نفسها، وهذه الشبكة ما زالت غير كاملة عندنا، وربما نكون قد بدأنا فيها فى بعض المجالات، لكن أتصور أنها لم تأخذ الطابع الكامل بعد.

وأنهى حديثى بالملاحظة التى ذكرها الأستاذ السيد ياسين؛ وهى فكرة الحرب الشعبية، وهى هزيمة إسرائيل عن طريق القوى غير الحكومية، وهذا الموضوع حتى على أرض الواقع من غير الممكن أن يؤدى إلى إنجاز عسكرى ملموس إلا بمقياس الأشخاص الذين قاموا بها.

فى مصر مثلاً عندما أتت هزيمة ١٩٦٧ تم سحب الجيش، ثم توقفت الحرب.. والفكرة هنا أننا كنا لا نستطيع الاستمرار؛ لأننا إذا واصلنا سندمر القاهرة وبقية المدن، وهناك بعض الأشخاص يقولون ما المشكلة لا بد من الاستمرار، وفى هذه الحالة فكرة التوازن العسكرى التى أتحدث عنها تكون محلولة؛ يعنى سيكون من الأفضل أن يكون التوازن العسكرى فى جانب العدو، وبالتالى هو يستطيع أن يدمرنى؛ لأن ذلك قرار تدمير، وبالتالى يجعلنى شهيداً، وبالتالى من الأفضل أن يقتلنى، والتوازن هنا يكون فى صالح العدو.. أتصور هذه المعادلة العدمية بشكل عام لا يمكن فى النهاية أن تحقق النصر لا على المستوى الفردى، ولا على المستوى الجماعى.

***